

كتب بالعربية

فلسطين في الكتابة التاريخية العربية: دراسات في حالة البحث

ماهر الشريف

بيروت: دار الفارابي، ٢٠١٦. ٤١٣ صفحة.

(١٩٤٨، ١٩٦٧، إلخ)، إذ إن مؤرخي فترة الانتداب البريطاني، اهتموا بإبراز الطابع العربي للبلد، والنموذج هو كتاب صالح البرغوثي وخليل طوطح "تاريخ فلسطين" (١٩٢٣)، وقد صاغه انطلاقاً من نزعة قومية، ومن دون إدراك عميق لطبيعة المشروع الصهيوني. وكتب عارف العارف عن "القضاء بين البدو" (١٩٣٣)، وفيه أخبار عن بدو بئر السبع، ثم أتبعه بـ "تاريخ بئر السبع وقبائلها" (١٩٣٤)، و"تاريخ غزة" (١٩٤٣)، وعدة مؤلفات أخرى، أبرزها "تاريخ القدس" (١٩٥١)، جاهداً في التزام "الحيدة" كما يقول (ص ٥٠). وانكبّ أقرانهم على جمع تاريخ وطنهم وتوثيقه منذ العصور القديمة استناداً إلى المصادر والوثائق المتوافرة. وذهب محمد يونس الحسيني مذهباً آخر في "التطور الاجتماعي والاقتصادي في

المناهج الغربية (والاستعمارية ضمناً)، والمرحلة التي يمكن عدّها بداية التاريخ الحديث (القرن الثامن عشر أم التاسع عشر؟) والدور الغربي فيه، وهل تكون مقارنة المؤرخ العربي شاملة أم جزئية؟ ولكل واحدة أسئلتها ومشكلاتها، من مسائل التحقيق وتقويم العصور المتنوعة، إلى ما يجب تأريخه، واستناداً إلى أي مصادر. ويشير الشريف إلى الصعوبات الجمة في حقل التاريخ المعاصر. وهو يرى أن ما يسمى "القضية الفلسطينية" كان محور تاريخ فلسطين المعاصر، أي منذ نشوئها والأطوار التي مرت بها

يستعين الكاتب بوليد الخالدي في مؤلفه "قبل الشتات" ليؤكد تمسك المظلوم، وهو الفلسطيني في هذه الحالة، أكثر من الظالم، أي الصهيوني، بكتابة تاريخه. ومقترحه هو دراسة "حالة البحث في تاريخ فلسطين"، وإرهاصات مشروعه موجودة في عمله (١٩٩١) عن المؤرخ الفلسطيني، إميل توما، أي فحص بعض حالات الكتابة التاريخية العربية عن فلسطين. ولأن تاريخها لا ينفصل عن التاريخ العربي عامة، فإن الباحث يطرح عدة إشكاليات بشأن استقلالية التاريخ العربي بعيداً عن

ناجي علوش في مؤلفه
"المقاومة العربية في
فلسطين: ١٩١٧-١٩٤٨"
(١٩٦٧)، والذي ينتقد بشدة
القيادة التقليدية، أي
"الزعامات والوجهات"
المحلية (ص ١٠٧). وتابعه
في ذلك عبد الوهاب الكيالي
في "تاريخ فلسطين الحديث"
(١٩٧٠).

وكل من أرخ بعد ذلك
وعرض لجذور القضية
الفلسطينية، حمل القيادة
الوطنية آنذاك مسؤولية
الهزيمة وخسارة الأرض.
وثمة من ركز على الدور
البريطاني مثل كتاب
"فلسطين والانتداب
البريطاني، ١٩٢٢-١٩٣٣"
(١٩٧٤) لمحمود خلة.

وكان للحركة الصهيونية
وخططها أيضاً نصيبها من
الفحص والتأريخ، مثل
"المنظمة الصهيونية
العالمية: تنظيمها وأعمالها،
١٨٩٧-١٩٤٨" (١٩٦٧)
لأسعد عبد الرحمن.

ويشير الكاتب إلى عدد
من المساهمات المهمة التي
رصدت تاريخ فلسطين
السياسي المعاصر وأغنته،

(ص ٦٩)، وقد تابعه كثيرون
في تدوين ما عاينوه وخبروه
من حوادث وفضائع (عارف
العارف، ومحمد عزة دروزة)،
وفي سرد الوقائع وتعيين
المسؤوليات (إميل الغوري؛
أكرم زعيتر؛ قدري حافظ
طوقان؛ شفيق الرشيدات).

وشددت هذه الأعمال وغيرها
على عروبة فلسطين، وحضت
على الكفاح لاسترجاعها.

أما الستينيات، فشهدت
نقلة نوعية في اتجاه الكتابة
"العلمية"، مع تأسيس مراكز
بحوث، مثل: مؤسسة
الدراسات الفلسطينية، ومركز
الأبحاث التابع لمنظمة
التحرير، وبروز مؤرخين
محترفين، نظير: أحمد طربين
وأنيس الصايغ ووليد
الخالدي. وكان الهمم الأساسي
هو "إشكالية العلاقة بين
البعدين القومي والوطني
للقضية الفلسطينية"
(ص ٨٧).

وفي إثر إنطلاق الكفاح
المسلح وتأسيس منظمة
التحرير الفلسطينية، عاودت
الكتابة التاريخية الغوص
في نكبة فلسطين: أسباباً
ومسؤوليات، ومفتحتها

فلسطين العربية" (١٩٤٦)،
متناولاً نحلة السكان في
معاشهم، ولا سيما بيت
المقدس، بينما اهتمت مؤلفات
أخرى بتتبع نشوء القضية
الفلسطينية مثل "جهاد
فلسطين العربية" (١٩٣٦)،
لعمر أبو النصر وإبراهيم نجم
وأمين عقل، المكتوب بنفس
عروبي وحس نضالي شديد.
أما عيسى السفري فألف
"فلسطين العربية بين الانتداب
والصهيونية" (١٩٣٧)،

ويعتبره الشريف أول كتاب
يحدد أن قضية فلسطين نشأت
عن عاملين اثنين: وضع
فلسطين تحت الانتداب
البريطاني، وصدور وعد بلفور
(ص ٦٢)، في حين نشر
يوسف هيكل "القضية
الفلسطينية: تحليل ونقد"
(١٩٣٧) بهدف نقض الأفكار

الصهيونية المزعومة عن بلده.
أما الكتابات التاريخية
في الخمسينيات فتميزت، في
عرف الكاتب، بالتنقيب في
أسباب نكبة ١٩٤٨ وسبل
تجاوزها، وأبرزها "معنى
النكبة" (١٩٤٨) لقسطنطين
زريق الذي دعا إلى "التجدد
الحضاري والإنشاء القومي"

مثل دراسات موسى البديري وعبد القادر ياسين، ودراسة الشريف نفسه عن الحزب الشيوعي والحركة العمالية العربية في فلسطين، ودراسات سميح شبيب وزياد أبو عمرو وآخرين غيرهما. يعرض الشريف "حالة البحث في تاريخ فلسطين القديم"، الذي بدأ يحظى بالاهتمام في النصف الثاني من القرن المنصرم،

ويورد أهم إشكالياته وصعوباته، كما هو "البحث في تاريخ فلسطين الإسلامي"، وما يثيره من أسئلة. ويلفت الانتباه إلى الانهماك في الفترة العثمانية وأهميتها، إذ إنها مؤلفات تطلنا على أحوال البلد قبل النزول الغربي، وما تلا ذلك من مأس. وفي ختام معابته لبعض حالات البحث

التاريخي، رأى الشريف أن "النكبة" وأثارها ستظل محور الاهتمام "مع ارتسام آفاق تاريخ عربي جديد"، و"تطوير لأساليب الكتابة التاريخية عن فلسطين" (ص ٣٤٩)، تستفيد من المكتسبات المعرفية الجديدة.

عفيف عثمان
كاتب وباحث لبناني

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

بلادنا فلسطين (الجزء الأول) جغرافية فلسطين وتاريخها: نظرة عامة

مصطفى مراد الدباغ
تقديم: وليد الخالدي

٧٨١ صفحة ٢٥ دولاراً (تجليداً فنياً)